

أسرة بني زُهر مدرسة رائدة

عبد العزيز بن عبد الله

عرفت العُدوتان - الأندلس والمغرب الكبير - منذ ظهور المرابطين في القرن الخامس الهجري أنصع فترة تبلور فيها العطاء العلمي بكل مجاله حيث ابتدع الفكر الاسلامي في عمق وجلاء منظومات ومعاهد ومؤسسات فاقت ما بذره رجالات القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بحصاد رائع اكتملت معطياته. غير أن مدرسة مَسلمة المجريطي الذي عاش بقرطبة في القرن الرابع⁽¹⁾ كان لها الفضل في وضع أسيسة العلوم التجريبية، ولولا هذه الركيزة البنيوية المكيئة لما استطاع خلفهم تحقيق ذلك التطور المتنامي.

فلقد برز في هذا العصر أمثال ابن جُلجل وهو أعظم طبيب طبائعي في عصره، وأحمد بن إبراهيم بن أبي خالد⁽²⁾ وأبي القاسم خَلَف ابن عباس الزهراوي صاحب كتاب «التعريف لمن عجز عن التأليف» الذي يعتبر أعظم طبيب في الجراحة العربية⁽³⁾ وأكبر رائد لخلفه حيث وضع اللبنة الأولى لفن الجراحة في العصور الوسطى فكان أكبر ممثل للمدرسة العربية في هذا المجال⁽⁴⁾، عرف كيف يدرج بإزاء النصوص صور آلات طريفة⁽⁵⁾، وقد توفي بعد الأربعمئة كما عند حاجي خليفة، والحسن الوزان

(1) لوسيان لوكلير (Leclerc L.) : «تاريخ طب العرب»، ج 2، ص 350 راجع طبعة بيروت في مجلدين، أو طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب (1980) المصورة عن طبعة لوكلير الأولى.

(2) المعروف بابن الجزار صاحب «زاد المسافر وقوت الحاضر» المتوفى عام 395هـ / 1004م ويوجد الجزء الأول من هذا المخطوط في الخزانة العامة بالرباط، وكذلك مختصر كتابه «الاعتدال في الأدوية المفردة» مؤلف مجهول وهو مرتب على الحروف.

(3) راجع كتابنا «الطب والأطباء بالمغرب» ص 12، طبعة الرباط، مطبعة جريدة العلم.

(4) لوكلير ج 1، ص 334.

(5) توجد بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع عدد 1427 بعد المقالة الثامنة من كتاب «التعريف» مقالة تحتوي على 28 صورة لحداثد الكئي والمكاوي التي تختلف حسب العضو المريض من الرأس إلى الأذن والفك والعين والأضراس والمعدة والمقعدة والكبد والطحال والقدم والساق والرحم والثانة التي كان أول من أجرى عملية تفتيت حصاتها.

الذي أُرُخ وفاته بعام 404هـ / 1013م (إلا أن كازيري (Gasiri) وهَمَ فأُرُخه بعام خمسمائة). وقد أفاد الشرق من تجارب الغرب الإسلامي منذ القرن الرابع حيث دخل محمد بن عبدون القرطبي كلاً من بلاد الكِنانة والبصرة فدبّر مارستان مصر وعاد إلى الأندلس عام 360هـ⁽⁶⁾، على أن الشرق عرف قبل ذلك «مختصراً في الطب» لعبد الملك بن حبيب السُّلَمي المرداسي القرطبي المتوفى عام 238هـ⁽⁷⁾.

وقد شهدت المغارب الثلاثة في هذه الفترة جملة من الأطباء المهرة حيث روى القِفْطِي⁽⁸⁾ أن المُعزّ الفاطمي كان مرفقاً إلى الكِنانة بعدد من هؤلاء الحكماء، على أن حركة الترجمة في إفريقيا تأسست منذ ظهر قسطنطين التونسي الصقلي مؤسس مدرسة سَالِرْنَة (Salerno)، وهي أول مدرسة من نوعها في أوروبا فكان مبعث أنوار الطب الحديث في أوروبا. وقد ولد قسطنطين هذا حوالي عام 400هـ بتونس وترجم إلى اللاتينية أهم كتب الطب العربي «كزاد المسافر» وكتب الرازي، وألف نحواً من أربعة وعشرين كتاباً منها «قانون الطب» في اثني عشر مجلداً و«فياتيكوم» في الطب العام في سبعة أجزاء.

إلا أننا لا نعرف بالضبط متى ازدهر الطب في المغرب الأقصى بالذات وإن كان الأستاذ لوكليز⁽⁹⁾ يؤكد ابتداء ازدهاره خلال القرن العاشر الميلادي (أي الرابع الهجري)، ملاحظاً أن المغرب أشد بلاد الإسلام عمقا من الناحية العلمية⁽¹⁰⁾ وقد أشير إلى وجود مدرسة بفاس في هذا العصر⁽¹¹⁾، وإن كنا لم نجد ما يؤكد ذلك. وربما كانت هنالك تقاليد أصيلة بالمغرب تشهد بعمق بعض التجارب العلمية، ومن أمثلة ذلك معرفة البرابرة منذ عهود سحيقة لحقن جراثيم الجذري تحصينا للمُصاب⁽¹²⁾. والواقع أن الطب لم يزدهر حقيقة بالمغرب الأقصى إلا في القرن الخامس حيث امتزج العطاءان الأندلسي والمغربي في وثبة مشتركة برعاية المرابطين. فقد كان هذا القرن والذي يليه أبرز العصور العلمية في الأندلس المسلمة رغم الاضطراب الذي تمخض عن تدخل المرابطين ثم الموحدين وذلك بفضل العناية التي أولاهها خلفاء صنهاجة ومُصمودة للعلم والعلماء انطلاقاً من الأطلسين الأوسط والكبير.

(6) «نفع الطيب» ج 1، ص 444.

(7) توجد نسخة مخطوطة منه في المكتبة الوطنية بالرباط.

(8) في «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» ص 75.

(9) ج 1 ص 334.

(10) ج 1، ص 407.

(11) راجع «شعيرات المغرب» للكاتوني العبيدي.

(12) Léon Godard - «Description et Histoire du Maroc» 2 vol. Paris 1860 (T1, p. 239)

إذ يمكن القول - ولو كلياً يؤكد ذلك⁽¹³⁾ - بأن الفكر لم يسبق له أن تحرر كما وقع في هذا العصر، يشهد بذلك نبوغ أمثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد في بلاط مراكش الحمراء، وكذلك بنو زهر الذين توارثوا الطب طوال ثلاثة قرون يدعمهم في العُدوة الشمالية كل من أبي جعفر أحمد بن محمد الغافقي⁽¹⁴⁾ صاحب «كتاب الأعشاب»⁽¹⁵⁾ وابن العوام أبي زكريا يحيى بن محمد⁽¹⁶⁾ مؤلف «كتاب الفلاحة» الحافل بالمعارف التطبيقية في النباتات، وهو كتاب لا نظير له في الأدب العربي⁽¹⁷⁾ على أن العدو الجنوبية عرفت عالماً نباتياً من سبّته هو الجغرافي محمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالشريف الإدريسي الذي ولد في حاضرة البوغاز عام 494هـ وتوفي سنة 560هـ / 1165م (وقيل 556هـ / 1160م). وقد وصف خلال تجواله الجغرافي أعشاب كثير من الاقطار وخاصة المغرب فكان مرجعاً لسلفه وأصيلاً في وصف نباتات لم تكن معروفة قبله.

وفي بحبوحة هذه الجمهرة من الرجال الأفذاذ ظهر ابن زهر أبو مروان عبد الملك بن أبو بكر بن محمد - المعروف عند الأوروبيين بـ Avenzoar والمتوفى عام 557هـ / 1162م - كأبرز طبيب تخرج من المدرسة العربية.

ولعل علوم الحكمة قد تقلص ظلها مؤقتاً في عهد يعقوب المنصور الموحد عندما حارب الفلاسفة حتى اضطر ابن رشد نفسه إلى التخلي عن الخوض في ذلك. والمنصور هذا وإن كان لم يقصد اضطهاد رجال الطب، حيث أناط بابن زهر نفسه مأمورية تعقب الفلاسفة ثقة به، إلا أنه عمد إلى تدوين الأحاديث النبوية وترتيب الجرايات لحفظها، فاتجه الناس إليها انجذاباً للمادة فقلّ المعتنون بالحكمة والطب، على أن اعتقال المنصور لابن رشد وأبي جعفر الذهبي قد زاد الناس رية في مصير الفلاسفة والأطباء. ولعل المنصور شعر بخطورة هذه التدابير فأعاد الخطوة إلى الرجلين وكلف

(13) ج 2، ص 72.

(14) وهو غير محمد بن قسوم الغافقي صاحب «المرشد في طب العيون».

(15) توجد نسخة في دار الآثار العربية تحتوي على 380 رسماً ملونا لنباتات وعقاقير وحيوانات متقنة الرسم.

(16) لا نعرفه إلا من خلال مصنفاته ويزعم كازيري أنه عاش في القرن السادس الهجري.

(17) لوكلير (ج 6 ص 11) الذي يصفه بأنه أعظم ما أنتجه لا العرب وحدهم بل حتى العصور القديمة

(ص 11)، ولعله لم يطلع على كتاب «عمدة الطبيب» لمؤلف مجهول.

أبا جعفر بالسهر على مصالح الأطباء وطلبة الحكمة فكانت من المنصور محاولة لا بأس بها لتنظيم المهنة الطبية.

مدرسة بني زهر

لا يمكن أن ندري مدى الدور الذي اضطلعت به أسرة بني زهر في المغرب الأقصى إلا إذا استعرضنا رجالها وحللنا منتجاتهم وخاصة منهم جوهرة عقدها صاحب «كتاب التيسير». وقد امتدت آخر السلسلة إلى ما بعد بني مَرين عام 825هـ / 1422م حيث توفي طبيب من أسرة بني زهر يعرف بابن زهر المغربي ينسب إليه كتاب «الفوائد الجربات في خواص المعدن والنباتات والحيوانات»⁽¹⁸⁾ على أن الحلقة الأولى قد تشخصت في محمد بن مروان بن زهر الذي توفي عام 422هـ / 1030م⁽¹⁹⁾. والواقع أن أول حلقة في هذه السلسلة قد تمثلت في أبي العلاء زهر بن عبد الملك بن محمد بن مران الذي عرفه الأوروبيون باسم Abouleizor Alguazir المتوفى عام 525هـ / 1131م فهو أول طبيب أندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الأندلس، وقد درس في قرطبة أيضا علوم الحديث والأدب، وزاول الطب في إشبيلية حيث كان في خدمة المعتمد بن عباد. وقد ذكر المراكشي أن المعتمد هو الذي استدعاه لمعالجة (الرميكية) عندما كان أسيرا بأغمات. وقد درس الطب على والده أبي مروان عبد الملك بن محمد المتوفى بإشبيلية عام 470هـ / 1078م والذي تولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر والقيروان⁽²⁰⁾ ثم إشبيلية دون أن يترك أي أثر في الطب أو غيره. إلا أن نتائج بعض تجاربه العلمية قد تنقلت حيث عرف بآرائه الشاذة في الطب، منها منعه من الحمام اعتقادا منه بأنه يعفن الأجسام ويفسد تركيب الأمزجة⁽²¹⁾. ولأبي العلاء كتب كثيرة⁽²²⁾ منها كتاب «التذكرة»⁽²³⁾ الذي ترجمه وطبعه كولان (Colin) عام 1911 بباريس، وهو مجموعة من الملاحظات سجلها لولده أبي مروان لتعريفه بالأدواء الغالبة في مراكش والأدوية المناسبة لها، على أن «جان دوكابو»

(18) هو منتخب من كتاب «خواص أبي العلاء بن زهر» (توجد نسخة بدار الكتب المصرية) عدد 135 طب.

(19) «نفع الطيب» ج 3، ص 14.

(20) «نفع الطيب» ج 1، ص 445.

(21) «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، ج 2، ص 64.

(22) راجع كتابنا «الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية» مطبعة فضالة 1975م / 1395 ج 1، ص 115.

(23) راجع مخطوط المكتبة الوطنية بباريس 2960 والاسكوريال 839.

قد ترجمها من العبرية إلى اللاتينية (نسخة في مكتبة كلية الطب بباريس). ثم توالى التراجم عام 1280م والمطبوعات (عشر مرات بين 1490 و1554م)، وقد تعززت هذه النسخ بنسخة مكتبة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها إلى عام 1531م وهي تحتوي أيضا على «كليات» ابن رشد. وعندما توفي أبو العلاء أمر علي بن يوسف المرابطي بجمع ملاحظات طبية أخرى كان ابن زهر هذا قد سجلها في أوراق وهي «المجربات» التي جمعت بمراكش عام 526هـ،⁽²⁴⁾ وتوجد نسخة لهذه «المجربات» باسم «مجربات الخواص» أو «مجربات صحيحة» في «مكتبة العبدلية»⁽²⁵⁾ التي تحفل بمصنفات أخرى لابن العلاء هي :

- 1) «كتاب التبيين في قطع الشك باليقين» انتصارا لجالينوس عن الشكوك المنسوبة لابن بكر الرازي (1/2867).
- 2) «مسهلات باعتبار الفصول» (5/2867).
- 3) «نجاح النجح» (3/2867).

وذلك بالإضافة إلى «فوائد المنتخب»⁽²⁶⁾ وكتاب «تدبير الصحة»⁽²⁷⁾ و«جامع أسرار الطب» ومقالة في شرح رسالة يعقوب ابن إسحاق الكندي حول تركيب الأدوية⁽²⁸⁾ ورسالة في أمراض الكلى كتبها لعلي بن يوسف⁽²⁹⁾ وأخرى أشار إليها ابن أبي أصيبعة ككتاب «النكت الطبية» وكتاب «الايضاح لشواهد الاقتضاح»، وكتاب «الأدوية المجردة» وكتاب في الرد على ابن سينا وكلها مفقودة، وأخيرا كتاب «الطُرر»⁽³⁰⁾.

وقد امتاز هذا الطبيب بمهارة فائقة برّ بها أقرانه حيث كان يعتمد من بين

-
- (24) مخطوط لها بالإسكوريال رقم 844.
 - (25) مخطوطة مكتبة العبدلية 4/2867، فهل هو كتاب «خواص الحيوان» برلين 6166 الذي توجد منه نسخة باسم «كتاب جمع الفوائد المنتخبة من الخواص المجربة» في مكتبة اسطنبول رقم 2068 وتوجد نسخة في مكتبة بارس حول الخواص لعلها هي التي استقى منها ابن البيطار «خواص لحوم الحيوانات».
 - (26) توجد نسخ منه في ليدن 1340، القاهرة 26، الإسكوريال 1839 : باريس 2954، وتوجد باسم «كتاب الخواص» ثلاث نسخ بباريس 1076 وليدن هولندا 1340، وفيينا 1460.
 - (27) توجد ترجمته اللاتينية وقد نشرت في مدينة بال عام 1618م.
 - (28) توجد نسخ في الخزنة العامة بالرباط رقم 532 د، (185 ورقة)، 2650 د و1762 د (متنور الأخير) راجع بحث رينو Reinaud في مجلة هسبريس عدد 12 عام 1931
 - (29) لا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام 1497.
 - (30) «التكملة» لابن الأبار — مطبعة مجريط 1886.

ما يعتمد لتشخيص المرض على فحص الأحداق وجس النبض وتحليل البول. أما ابن زهر عبد الملك بن أبي بكر بن محمد بن مروان⁽³¹⁾ (557هـ / 1162م) فقد عرف عند الأوروبيين باسم AVENZOAR. وإذا أطلق اسم ابن زهر انصرف إليه وحده. وقد كان أعظم طبيب في عصره بالنسبة للمسلمين والمسيحيين على السواء⁽³²⁾ ولد بإشبيلية في تاريخ غير معروف إلا أن البعض يرجع سنة 1072م الموافقة لعام 467 من الهجرة. وقد أقيمت ذكراه بدمشق عام 1972 بمناسبة مرور تسعة قرون على هذا المولد. وقد تأثر هذا الطبيب الفذ بتعاليم أبيه الذي وجه إليه كتابه «التذكرة» وقد أصابه ما أصاب والده قبله من محنة على يد علي بن يوسف بن تاشفين فسجن نحو من عشر سنوات وتعقبت شخصيته ترهات واقتراءات حتى قيل إنه يهودي المعتقد،⁽³³⁾ ولعل ذلك راجع إلى تجريد فواتح كتبه مما يدل على إسلامه، وهذا التزييف لتاريخ الاسلام مائل إلى اليوم في كتب شتى⁽³⁴⁾.

ولابن زهر علاوة على كتاب «التيسير» مصنفات أخرى منها⁽³⁵⁾ :

- (1) «الجامع في الأشربة والمعجونات» وتسمى نسخة العبدلية (8/2867) (أشربة ومعاجن لما يحدث في البدن من الأمراض) ويوجد كتاب «جامع أسرار» بالخزانة العامة بالرباط.
- (2) «كتاب الأغذية والأدوية»، المكتبة الوطنية بباريس، عدد 2960 (35 ورقة)، الاسكوريال 829 بخط عبري، الخزانة العامة بالرباط، عدد 768 د /، مكتبة السلطان أحمد الثالث (2068) (58 ورقة) / فهرس المخطوطات المصورة، ج 3، قسم الطب، العبدلية (12/2867). وقد كتب لعبد المومن (ابن أبي أصيبعة ج 2 ص 66) ولعل ذلك بعد كتاب «التيسير»، وقد ترجم إلى اللاتينية وهو يحتوي على مبادئ علم الصحة

(31) راجع ترجمته في «تكلمة الصلة» لابن الأبار ج 3 ص 612، «الذيل والتكملة» ق 5 ص 18، «شجرة النور» ص 131، «نفح الطيب» ج 3 ص 13، «طبقات الأطباء» ج 2 ص 66.

G. Colin, Avenzoar, sa vie et ses oeuvres, Paris 1917 E. Leroux Editeur.

(32) سارتون «المدخل إلى تاريخ العلم»، الولايات المتحدة الأمريكية 1947.

(33) Godard «تاريخ المغرب» ص 452 / قاموس Stedman الطبي medical dictionary.

(34) أشار إليها السيد محمد لقلومي في أطروحته حول (ابن زهر ودوره في تطور الطب التجريبي العربي من خلال كتابه التيسير) رقم 41 عام 1986.

(35) توجد نسخة من «التذكرة» تنسب إليه (العبدلية 13/2867) ولعلها «التذكرة في الدواء المسهل» وقد وهم ابن أبي أصيبعة في نسبة «التذكرة» لابن مروان، وقد رأينا أنها لوالده.

وأنواع المأكولات والمشروبات المفيدة ومواقيت تناولها وعن ممارسة الرياضة والاعتسال والطبوب... الخ.

(3) «الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد» (الاسكوريال 834/829) مخطوطة عربية مكتوبة بالحرف العبري، 95 ورقة، العبدلية 9/2867، المكتبة الوطنية بباريس 2959 (141 ورقة) تحدث فيه عن الطب وهو علاج الأمراض وعن الوقاية بنظام خاص في العيش يسميه (الرتبة) كما تحدث عن الطب النفساني ويشتمل قسم إصلاح الأجساد على سبع مقالات.

(4) «رسالة تفضيل العسل على السكر» (العبدلية بتونس 10/2867) ولعله جزء من «كتاب الأغذية».

(5) «القانون المقتضب» (العبدلية 11/2867).

(6) مختصر كتاب حلية البرء لجالينوس (العبدلية 14/2867)⁽³⁶⁾.

(7) «جمع الفوائد المنتخبة من الخواص المجربة» (مكتبة أحمد الثالث - اسطامبول رقم 2068).

وإذا صحت نسبة هذه الكتب كلها إلى أبي مروان فإنها تمكننا من تقييم أوفى لعمق معارفه، إلا أن بعض المؤرخين نفوا وجود مخطوطات أخرى عدا «الاقتصاد» و«التيسير» و«الأغذية»⁽³⁷⁾.

وقبل أن نعرض لمحتوى كتاب «التيسير» يجدر أن نقارنه مع كتاب «الاقتصاد» وأن نحلل أسلوب ابن زهر الأدبي والعلمي في الكتابين. فقد ألف كتاب الاقتصاد لإبراهيم بن يوسف أخي علي وهو - كما يقول المؤلف نفسه - عبارة عن تذكرة لمن سبق له أن قرأ كتباً أخرى في الطب. فابن زهر لا يتكلم مع العموم ولكن مع طبيب مثله. وقد حلل عملياً الفرق بين الجُذام والبهق وقضية العدوى التي أفرد لها رسالة لم تصلنا، ومن أجل هذه التحليلات الدقيقة التي بذلها سلفه اعتبره زملاؤه أعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازي في الشرق. وقد أكد ابن عبد الملك في «الذيل والتكملة» أن ابن رشد كان يفضل على غيره من أهل عصره. والواقع أن ابن زهر

(36) ويضيف آخرون «كتاب الرينة» (مقالة في علتي البرص والبهق) ومقالة في (علل الكلى) وهي لأبيه أبي العلاء كما رأينا، ولعلها مفقودة.

(37) ميشيل الخوري «مؤلفات بني زهر» مجمع دمشق 1982، وتوجد بالمكتبة الوطنية بباريس تحت عدد 2960 مجموعة تحتوي على كتابي «الأغذية» و«التيسير» لابن زهر و«التذكرة» لأبي العلاء مع رسالة في الأدوية.

قد جرؤ على وصف أطباء عصره ملاحظاً اختلافهم في الاعتناء بالمرضى وجهل بعضهم لأسرار الطب، لأن الطبيب الذي يستشير مريض من المرضى يبادر فيصف له دواء من الأدوية دون تمحيص للحالة في جميع خواصها. ويقرن ابن زهر دائماً نظريته بمثل واضح حيث ذكر أنه استدعي يوماً لدى أمير مرابطي فوجد جماعة من الأطباء شباباً وشيوخاً لم يسبق له أن تذاكر معهم ولكنه تأثر بتجربتهم، فجرت المذاكرة حول الداء الذي يشكو منه الأمير فبادر الأطباء الحاضرون ووصف كل منهم دواء فلم يوفق في نظر ابن زهر سوى واحد منهم ومع ذلك لم يستكنه سبب الداء. وما امتاز به من جهة أخرى مخالفاً أطباء عصره الأقدمين استعماله الفصد للشيوخ من سبعين سنة فأقل وللأطفال كذلك، حيث فصد ابنه من ثلاث سنوات فأدهش معاصريه، وقد ورث هذه الجرأة العلمية المعززة بالتجربة من والده أبي العلاء الذي أوصى بيطيخ فلسطين (أي الدلاح في عرف المغاربة) لعلاج أمراض الكبد، واستعمل طرقاً جديدة في الكشف والتحميص مثل جس النبض والنظر في قوارير البول.

وقد تهافت زملاؤه من الأطباء على قراءة «كتاب الاقتصاد» وفي طليعهم أبو الحكم ابن غلندو الاشبيلي الشاعر الذي درسه عليه عام 535هـ في سجن مراكش، ولعل نجاح ابن زهر في تجاربه هو الذي حدا بالمنصور الموحيدي إلى استقدامه للمرة الثانية إلى مراكش عام 580هـ، على أن الخليفة الموحيدي عبد المومن بن علي قد اختصه قبل ذلك لنفسه وعوّل عليه في فحوصه، وله صنف كتاب «الترياق السبعيني» وأثبت كرمه عنب كان يسقيها من ماء مسهل لكراهية عبد المومن شرب المسهلات فصار يعطيها من ثمارها.

أما كتاب «التيسير» فقد ألفه أبو مروان بن زهر بطلب من ابن رشد كتدليل لكتابه «الكليات» (Colliget). وقد ذكر ابن زهر في آخر كتابه أن الشخص الذي كلفه بمراقبته في التأليف لم يرقه الكتاب لأنه يخالف التعليمات الصادرة إليه، ولأن فهمه يعسر على من ليس عنده مسكة من الطب، لذلك ألحق ابن زهر «الجامع» بآخر الكتاب. فهل عبد المومن هو الذي أمره بتصنيفه؟ وقد ذكر لوكلير أن ابن رشد ينقل عن ابن زهر⁽³⁸⁾ وقد اتسم كتاب «التيسير» بالطرافة لأن ابن زهر نهج فيه أسلوباً جديداً في الحكمة القياسية مستخدماً التحميص العقلي للوصول إلى أحسن

(38) وقد تعرض ابن سعيد المغربي في الرسالة التي ذيل بها رسالة ابن حزم في فضل علماء الأندلس - لكتاب «التيسير» فأكد أنه مشهور بأيدي الناس بالمغرب، وقد سار أيضاً في المشرق لنبله (نفع الطبيب، ج2، 778). وقد طبع كتابه «التيسير» برعاية أكاديميه المملكة المغربية وتحقيق محمد الروداني سنة 1991.

النتائج، فهو طبيب التجربة والتحقيق العلمي وليس من صناع اليد. أما في الميدان العملي فقد لاحظ ابن زهر أنه يأنف من إجراء العمليات الجراحية الكبرى بنفسه لأن رؤية الجروح تثير في نفسه ضعفاً يوشك أن يسفر عن إغماء ولكنه لا يكره تحضير الأدوية غير مستعمل الخمر في تركيبها على سنن والده أبي العلاء، حتى ولو أوصى بذلك جالينوس على خلاف الرازي وقد تحدث عن الأعمال اليدوية في الطب فلاحظ أنها موكولة لأعوان الطبيب مثل الفصد والكي وفتح الشرايين، أما مهمة الطبيب نفسه فهي تقرير نظام الأكل عند المريض ووصف الأدوية له. على أن ابن زهر كان ولوعاً بالمباشرة اليدوية في الصيدلة وتجربة الأدوية والتوصل إلى قيمها وتركيباتها.

ولعل أبا مروان قد توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية إلى الكشف عن أدواء جديدة لم تدرس قبله. فقد اهتم في كتابه هذا بالأمراض الرئوية وأجريت له عملية القصبة المؤدية إلى الرئة، وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصبة في مرض (الذبح) فعولج المريض، وقد اختص أيضاً في أمراض الجهاز الهضمي واستعمل أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع، كما استخدم الحُقن المغذية وكشف عن طفيلية الجرب وسماها حُوابة الجرب، مبسطاً طرق العلاج القديمة. وقد أوضح أن الطبيعة إذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشري تكفي وحدها في الغالب لعلاج الأدواء.⁽³⁹⁾ وكان أبو مروان إذا عالج مريضاً نسي نفسه واستهلك في مريضه، وهذا هو سر عبقريته. فإذا عرضت عليه حالة شائكة حاول أن يعيشها مستلهما ذكرياته وتجاربه ومنطقه. ولهذا كان نسيج وحده حتى انكب أطباء القرون الوسطى على درس كتابه «التيسير» الذي ترجم أولاً عن العبرانية من طرف شخص مجهول (مخطوط بمكتبة ليدن بهولندا) ثم إلى الإيطالية عام 1260م. ولا بدع، فإن ارتكاز ابن زهر على المنهج التجريبي والطريقة العقلية بدل التقليدية في ممارسة الطب قد تعزز ببادرة جريئة تمخضت عن عبقرية فذة تطورت بفضلها شُعب ثلاث حاول توحيدها وهي الصيدلة والجراحة والطب العام⁽⁴⁰⁾. وقد تحدث ابن زهر في كتاب «التيسير» عن يمين أبقرط الذي كان يطالب بها جميع من يدرس مصنفاته ويقضي منهم إلزام تلاميذهم بها. وقد ذكر أن والده أبا العلاء تلقى اليمين منه عندما كان لا يزال طفلاً لدى ابتدائه دراسة الطب وحكى أن أحد التوار طلب منه سُمّاً فأبى معرضاً نفسه

(39) «حضارة العرب» - جُستاف لوبون - الطبعة الفرنسية، ص 530.

(40) «تاريخ المغرب» - كودار - (Godard) ص 452.

للخطر ثم سقط هذا النائر مريضاً وبدلاً من أن يقضي الطبيب عليه عاجله بإخلاص طبقاً لمبادئ أبقرات. ولعل المغرب لم يكن يستعمل قسماً آخر غير هذا اليمين، مع أن المحتسب⁽⁴¹⁾ في الشرق هو الذي كان يُحلف الأطباء «أن لا يُعطوا أحداً دواءً مرّاً ولا يركبوا له سماً ولا يصنعوا السمائم عند أحد من العامة ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل، والغض عن المحارم وعدم إفشاء الأسرار (وهو المسمى اليوم سرّ المهنة) والتوفر على جميع الآلات».

وخلاصة القول فإن كتاب «التيسير» الذي امتاز بالرصانة والوضوح والإيجاز⁽⁴²⁾ قد عرف كيف يوفق بين المعطيات المنطقية التجريبية وبين التقاليد القديمة كنظرية الأخلاط (théorie humorale) ومبدأ القوى الطبيعية الشافية ونظرية الأيام البُحرانية (crise) ليستند إلى التحقيق العلمي بإجراء تجارب للتأكد من صحة بعض الفروض. فكتاب «التيسير» قد احتل مرتبة في تاريخ الطب لا تقل شأنًا عن كتاب «الحاوي» للرازي و«القانون» لابن سينا. وقد تحدث ابن زهر عن أمراض في تحليلات دقيقة وصف فيها أورام الغشاء الغليظ (la dure-mère) والتشخيص التفريقي (diagnostic différentiel) وأورام الغشاء الرقيق (la pie-mère) وأورام الدماغ (encéphalites) والجليدية (le cristallin) والزجاجية (l'humeur vitrée) والبيضية (l'humeur acqueuse) والتآليل (les verrues) والسلع (les humeurs fibro-kystiques) والغلط الخارج عن الطبيعة (Xanthome) وأمراض مآقي العين (pathologie des voies lacrymales) وقروح المتحم والقرنية (Conjonctivite-kératite) والانتشار (cataracte) وهو ما يسمى اليوم «الساد». وقد تعرف ابن زهر عن الأدوية الناتجة عن اختلال الدماغ فوصف أعراضها من تشنج (spasme) وصرع (épilepsie) وثير سام بارد (délire chronique) الخ. كما وصف في «التيسير» بدقة مرض السل ومضاعفاته وأمراض القلب والكبد والطحال والمعدة ومراقى البطن وأمراض الصدر والمثانة والكلية وحصاتها وأمراض القضيب والأرحام والفروج وكسور العظام والتهابها (ostéite) والحميات، والأمراض الوبائية. ولم ينس في تحرياته أي عضو ولا جهة في الجسم البشري إلا كشف عن خباياها من خلال تجارب عملية واعية جعلت منه طبيباً متعدد التخصصات، وقد نوه أطباء مؤرخون من العرب والعجم بعطاءات ابن زهر خاصة في كتابه «التيسير» وذيله «الجامع» حيث برز كأول حكيم شقّ قصبة الرئة (trachéotomie) واستخدم المسبار المعدي (sonde gastrique) لوصف

(41) راجع «نهاية الرتبة» لعبد الرحمن الشنيزي.

(42) أطروحة الدكتور محمد لقومي (كلية الطب والصيدلة بالدار البيضاء).

الحِمية وتحديد الأغذية الصحية، وشخص وعالج ما يعرف اليوم بوذمة الرئة الحادة (O.A.P) (oedème aigu du poumon) والتهاب التامور (péricardite) معطيا في كل علاجاته الأسبقية الكاملة للمداواة بالأعشاب النباتية التي كانت أسيسة صيدلته فاكتملت بذلك في شخصه الفذ خصائص الحكيم البارِع الذي يصدر عن نظر بعيد وإدراك سديد. وقد نلمس من خلال المصطلحات الطبية التي استعملها ابن زهر دقة نادرة ينطبق فيها مصطلحه على المصطلح الحديث لاسيما في عمق المفهوم⁽⁴³⁾.

مدرسة رائدة

ومن هذا العرض الوجيز يمكن أن نتصور مدى ريادة مدرسة بني زهر في القرنين الخامس والسادس الهجريين وهما قرنان اتسما - بتوجيه الخلفاء الموحيدين - بالاجتهاد في كل مجالات المعرفة حتى في النحو الذي برز فيه ابن مضاء.

وكانت ركيزة الاجتهاد العلوم الاسلامية وفروعها من علوم الآلة. وقد عمد المنصور - كما رأينا - إلى تدوين الأحاديث وترتيب الجرايات لحفظها فنال بنو زهر من ذلك حظا وافرا، فقد كان الحفيد (أي حفيد أبي العلاء) محمد بن عبد الملك بن زهر (المتوفى بمراكش عام 596 هـ أو 595 هـ / 1198 م) طبيا ماهرا ومحدثا يحفظ «صحيح الإمام البخاري» بأسانيده⁽⁴⁴⁾. ولم يكن في زمانه أعلم منه باللغة حيث استظهر شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب. وقد خدم الدولتين اللمتونية والموحدية (عبد المومن ويوسف ويعقوب والناصر). وله رسالة في (طب العيون)، إلا أن لوكلير ينسبها لولده عبد الله. وهو الذي ألف «الترياق الخمسيني» (أي المركب من خمسين مادة) antidote ليعقوب المنصور، ودسَّ إليه ابن يوجان وزير المنصور السّم هو وابنة أخته الطيبية، وكانت تدخل هي وأمها - بحكم اختصاصهما في أمراض النساء - على حرم المنصور⁽⁴⁵⁾. وله أيضا (موشحات) وهي من الفنون التي أغرب فيها - كما يقول ابن دحية - أهل المغرب على أهل المشرق⁽⁴⁶⁾.

(43) نفس الأطروحة تحلل هذه المفردات من ص 132 إلى ص 148 مع بيان اضطرار ابن زهر أحيانا إلى استعمال عبارة عوضا عن لفظ مفرد رعاية للدقة.

(44) «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» لابن أبي زرع، ج 2 ص 180.

(45) «طبقات ابن أبي أصيبعة» ص 67.

(46) راجع ترجمة الحفيد في «نفع الطيب» ج 1، م 625؛ ج 3، ص 16. «شجرة النور الزكية» ص 160. «معجم الأدباء» لياقوت ج 18 ص 216. «الوافي بالوفيات» لخليل ابن أبيك الصفدي ج 4، ص 39. «العبر في أخبار من غير» للذهبي ج 4. «الأعلام بمن حل بمراكش...» لعباس بن إبراهيم المراكشي، ج 50 (الطبعة الأولى، التكملة ص 270).

وولده عبد الله بن الحفيد قد خدم أيضاً الناصر بن المنصور، وكان عالماً بأسرار الصناعة، وتوفي مسموماً في رباط الفتح عام 602 هـ ودفن بها وهو ابن 25 سنة (ابن أبي أصيبعة، ص 74).

وقد شمل التخصص في عهد الموحدين بعض النساء أمثال أم عمرو بنت أبي مروان بن زهر طيبة دار المنصور، وكانت تمارس مهنة الطب وتداوي نساء البلاط بمراكش، ويستفتيها الموحدون في طب النساء والأطفال. وبنت أم عمرو من أبي العلاء بن زهر كانت هي أيضاً عالمة بصناعة الطب والتوليد.

ولعل آخر أسرة بني زهر هو أبو العلاء الثاني محمد بن أبي محمد بن زهر، إلا أننا نجد في دار الكتب المصرية (135 طب) رسالة منسوبة لابن زهر المغربي المتوفى عام 825 هـ/1422 م) عنوانها «المجربات في خواص المعدن والنبات والحيوانات» وهو منتخب من كتاب «خواص» أبي العلاء ابن زهر. وقد أفاد الشرق من ازدهار علوم الحكمة والطب بالمغرب والأندلس فنيغ في القرن السابع الهجري بفضل عطاءات مدرسة بني زهر الرائدة أمثال السديدي صاحب «التذكرة» المتوفى عام 691 هـ⁽⁴⁷⁾، وابن أبي أصيبعة وجمال الدين القفطي علي بن يوسف المصري (الوزير الملقب بالقاضي الأكرم المتوفى عام 629 هـ) وابن النفيس المصري المتوفى عام 687 هـ والذي كان أعظم أطباء عصره وهو صاحب كتاب «الشامل» المهدي لمستشفى قلاوون بمصر والذي لم يكمل منه المؤلف سوى ثمانين مجلداً من ثلاثمائة⁽⁴⁸⁾ وقد أشار فيه إلى الدورة الدموية الصغرى أي الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون⁽⁴⁹⁾ ولعله اقتبس من «كليات» ابن رشد حيث وصف مؤلفه مجرى الدورة الدموية الكبرى، وعللها بدقة أوحث الكثير إلى ويليام هارفي William Harvey في معظم نظرياته.

على أن مصنفات رجال المغرب في عهد بني زهر أصبحت أساساً دراسياً حتى للعلماء النباتيين في القرن السابع أمثال ابن البيطار المتوفى عام 646 هـ⁽⁵⁰⁾ وأستاذه أبي العباس النبطي وهما أعظم العلماء الذين وصلتنا مؤلفاتهم. ولم ينبج الشرق

(47) يوجد بالخزانة العامة بالرباط مختصر «التذكرة» لعبد الوهاب الشعراني (في 141 ورقة).

(48) يوجد بالخزانة العامة بالرباط موجز قانون ابن النفيس لعل بن حزم القرشي المتوفى عام 637 هـ في 38 ورقة.

(49) نشرة المعهد المصري بمدريد، ج 26، عام 1934، بحث بقلم ماكس مايرهوف ص 33.

(50) «نفع الطيب»، ج ص 274 وقد خلف أبو عبيد البكري صاحب المسالك كتاباً حول أعشاب الأندلس وأشجارها، ينقل عنه ابن البيطار. وقد وصف بعض الظواهر الغريبة من تاريخ علم الطبيعة كالأعشاب المسهلة وأشجار «أركان» التي أشار إلى وجودها في طريق أغمات إلى فاس.

في هذه الأثناء من أعالم الرجال سوى فخر الدين الرازي فاستطاع الأندلس بفضل شبكة علمائه أن يحمل راية الفلسفة والطب في العالم الإسلامي.⁽⁵¹⁾ إلا أن القرن السابع هذا الذي وُصف بأنه عصر ازدهار في الشرق ما لبث أن عقبه عصر انهيار واكمه انحسار موجة العلم والحكمة بالمغرب بعد وقعة «العقاب» التي انهزم فيها الموحدون عام 609 هـ، وكانت السبب في هلاك الأندلس⁽⁵²⁾.

وقد انبسطت إشعاعات بني زهر على العدوتين فتكونت خاصة بالمغرب مجموعة فذة من كبار الأطباء منذ قيام المرابطين إلى سقوط دولة الموحدين. ومن هؤلاء العلماء :

- أبو جعفر بن هارون الترجالي طبيب يوسف بن تاشفين وهو تلميذ أبي بكر بن العربي المَعافري في الحديث وشيخ ابن رُشد. وكان عالماً بصناعة الكُحل (طب العيون)⁽⁵³⁾. ومن أطباء يوسف الذي كان يزاحم في بلاط مراكش ابن طُفيل وابن رُشد وابن زُهر⁽⁵⁴⁾، وكذلك الطبيب سعيد الغُماري⁽⁵⁵⁾.

- أبو الحجاج يوسف ابن موراطير طبيب المنصور والناصر الذي رافقه إلى تونس، والمستنصر. ومن تلامذته :

- أحمد بن عبد الله الكنباري الذي درس الطب على عبد العزيز ابن مسلمة الباجي. وعند مآلف ابن أبي أصيبعة كتابه كان هو طبيباً في إشبيلية عند بني هُود.

- أبو إسحاق إبراهيم الدّاني (من بجاية)، كان أمين البيمارستان وطيبه بمراكش حيث توفي في أيام المستنصر. وقد ذكر لوكليير (ج 2، ص 242) أنه كُلف بإدارة مستشفى الجزيرة الخضراء، وخلفه ولده محمد الذي قُتل في غزوة «العقاب».

- أبو يحيى بن قاسم الإشبيلي صاحب «خزانة الأشربة والمعاجين»، وكان والده في خدمة يوسف الموحدي، وتوفي أبو يحيى بمراكش أيام المستنصر وجعل في موضعه في الخزانة ولده⁽⁵⁶⁾.

(51) لوكليير، ج 2، ص 72.

(52) كما يقول ابن عذارى في «البيان» ج 4.

(53) ابن أبي أصيبعة، ج ص 75. وقد ذكر ابن عذارى (ج 4، ص 70، أن أبا يعقوب لما خرج في الغزوة التي مات إثرها بالأندلس كان الأطباء الحاضرون لديه هم ابن زهر وابن مقبل وابن قاسم.

(54) الأنيس المطرب ج 2، ص 176.

(55) الأعلام للمراكشي ج 1، ص 343.

(56) طبقات الأطباء، ص 79.

- أبو جعفر أحمد بن حسن الغرناطي طبيب المنصور، وهو الذي رافق ابن جبير في رحلته ودُفن بفاس. وقد أُلّف للمنصور كتاب «تدبير الصحة». وكان ولده أبو العلاء طبيباً للمستنصر.

- أبو محمد الشلوقي الإشبيلي تلميذ عبد الملك بن زهر، كان جيد العلاج وطبيب الناصر.

- أبو الحسين بن أسدون الملقب بالمصدوم، تلميذ عبد الملك بن زهر، كان شاعراً معتياً بالطب يطلبه المنصور للعلاج (الطبقات، ص 79)، وتلميذه عبد العزيز بن مسلمة الباجي المعروف بابن الحفيد كان شاعراً وطيباً.

- أبو جعفر بن الغزال طبيب المنصور الذي كان يعتمد عليه في تركيب الأدوية والمعاجين.

- أبو بكر بن القاضي بن الحسن الزهري تلميذ ابن رشد وطبيب أبي علي بن عبد المؤمن صاحب إشبيلية، وكان يطب الناس من دون أجر.

- محمد الندرومي (من ندرومة قرب تلمسان) الكومي، ولد عام 580 هـ، طبيب الناصر والمستنصر، وهو الذي اختصر «المُستَصَفَى» للغزالي، وهو تلميذ ابن رشد وابن موراطير، وانتقل آخر حياته لخدمة بني هود.

- أبو جعفر أحمد بن سابق تلميذ ابن رشد وطبيب الناصر.

- ابن الجلاء المرسي طبيب المنصور.

- أبو إسحاق بن طملوس طبيب الناصر.

- أبو جعفر الذهبي طبيب المنصور والناصر (توفي عام 600 هـ عند عزو أفريقية) (ابن أبي أصيبعة ص 81).

- أبو إسحاق بن الحجر كبير أطباء الرشيد الموحيدي (الذيل والتكملة).

- أحمد بن مضاء اللخمي القرطبي، لقي القاضي عياض بسبته ومهر في الطب (الدياج لابن فرحون ص 65).

- إبراهيم بن صواف الحجري الشاطبي، تعلم الطب وتصدى للعلاج بطنجة واستقر آخر عمره بفاس، وتوفي نحو 506 هـ (الجدوة ص 86).

- أحمد بن عبد الله بن موسى القيسي الإشبيلي، سكن مدينة فاس وتوفي بها عام 571 هـ (الجدوة ص 70)، وهو تلميذ أبي بكر بن العربي المعافري.

- أبو الحسن علي بن أحمد الشلطيبي الطبيب الشاعر، استوطن مراكش وتوفي بفاس عام 565 أو 566 هـ (الذيل والتكملة).

– علي بن عتيق الخزرمي نزيل فاس، كان شاعراً ماهراً في الطب موفق العلاج (الذيل والتكملة)، وقد حدث في بجاية، وله تأليف، توفي عام 598 هـ (الجدوة ص، 306)

– أبو يحيى هانيء بن الحسن اللخمي الغرناطي له مشاركة في الحديث والأصول والطب، تتلمذ لابن فرتون بفاس، توفي عام 614 هـ. (الجدوة، ص 385).

– محمد بن أحمد بن صالح العبدى، له نظر وعناية بصناعة الطب. (عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة، ص 65).

– محمد بن قاسم الأنصاري الجياني سكن مدينتي سبتة وفاس وأخذ عن علمائها كأبي القاسم التجيبي (الجدوة ص 192).

وقد أنجبت حاضرة فاس عائلة بكاملها من الأطباء هم بنو أفلاطون الذين تحدث عنهم ابن الزيات التادلي في كتابه «التشوف إلى رجال التصوف»⁽⁵⁶⁾.

وكان لأطباء المغرب وحكمائه وصيادلته إشعاع في الشرق طوال فترة ريادة بني زهر. وقد تبلور هذا الإشعاع في مدِّ عارم نقل رجالات مراکش وفاس إلى عواصم الشرق العربي لبث العلم وإدارة البيمارستانات :

فقد توجه علي بن يقظان السبتي الطبيب الشاعر الأديب إلى مصر عام 544 هـ، ثم إلى اليمن والعراق (القفطي ص 160)، وكذلك يوسف بن يحيى بن إسحاق السبتي أبو الحجاج، انتقل إلى حلب بالشام، وكان يعرف في سبتة بابن سمعون، وهو في الأصل طبيب فاسي إلا أنه درس بسبتة الحكمة، فسَادَ فيها (القفطي ص 256). وقد ذكر لوكليز (ج 2، ص 193) أن يوسف هذا كان طبيب ميمون أمير حَلَب، وطبيب الملك الطاهر وصديقاً للقفطي. وقد ذكر المقرئ⁽⁵⁷⁾ أن أبا الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلي المعروف بالمغربي من أهل «ألمرية» تحت الحكم الموحيدي أديب شاعر اختير طبيباً للمارستان في معسكر السلطان السلجوقي، وقد سكن دمشق. وهذا السلطان هو محمد بن شاه. وكان مارستانه هذا⁽⁵⁸⁾ ينقل على أربعين جَمَلاً. وقد توفي بعاصمة الشام عام 549 هـ.

ومن الأطباء المغاربة الذين أذن لهم – نظرا لمكانتهم – بفتح عيادة في دمشق

(56) مخطوط المكتبة الزبيدية بالرباط، ص 130، وقد طبعته كلية الآداب بالرباط.

(57) في «نفع الطبيب» ج 1، ص 391.

(58) «النفع»، ج 2، ص 655.

أبو جعفر عمر بن علي القلعي، الجامع بين عِلْمَي الطب والصيدلة والماهر في علاج الأمراض وتحضير الأدوية. وقد كتب ملاحظات على كتب ابن سينا. وقد ولد بالمغرب وعاش بدمشق حيث توفي عام 576 هـ (لوكلير، ج 2، ص 46).

أما في بغداد فقد نزل محمد الغساني الجياني الحكيم الطبيب بالمدرسة النُظَّامِيَّة عام 601 هـ، بعد مروره على القاهرة وسكنه بدمشق، وكان يلقب بحكيم الزمان، ويحضر مجالس صلاح الدين الأيوبي (النفع، ج 2، ص 645)

وبعد أن درس موسى بن ميمون اليهودي الطب بفاس حيث أظهر الإسلام عام 1160 م، ومكث خمس سنوات، نقل تعاليمه إلى «عكرة» ثم مصر حيث استقر بالقُسطاط وأصبح من أطباء البلاط الأيوبي.

وقد عرف الخلفاء الموحدون كيف ينسقون بين هذه الطاقات في مستشفى ربما اعتبر أعظم مستشفى في العالم في ذلك العصر أي القرن السادس الهجري، فإلى جانب «دار الفرج» التي أسسها أبو يوسف شرقي الجامع الكبير وجّهزها كما وصفها صاحب «الاستبصار في عجائب الأمصار» «بالمنازل والمياه والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوهة»، أقام المنصور مارستاناً وصف عبد الواحد المراكشي بدقة في كتابه «المعجب» (ص 177) ما احتوى عليه من أجهزة وخزانات صيدلانية فقال: «وبنى بمراكش بيمارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضوع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأَتَقَنُوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع بركٍ في وسط إحداها رُخام أبيض، ثم أمر له من الفُرُش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف، ويأتي فوق النعت، وأجرى ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجاً عما جلب إليه من الأودية، وأقام فيه الصيدلة⁽⁵⁹⁾ لعمل الأشربة والأدهان والأحكال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض، فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يشتغل، وإن كان غنياً دفع له ماله... ولم يُقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كان من مريض بمراكش من غريب حُمِلَ إليه وعولج إلى أن يستريح

(59) ذكر البيروني المعروف عند الأوروبيين Maître Aliboron في مقدمة «كتاب الصيدلة» أن لفظة السيدة بالنون أكثر شهرة من الصيدلة باللام (ماكس مايرهوف - نشرة المعهد المصري، ج 22 عام 1940).

أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى... ولم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات.

وقد علق مِيّي (Millet) في كتابه حول الموحدين Les Almohades⁽⁶⁰⁾ (ص 129) على هذا النمط الرائع فأكد أن هذا المستشفى «لا يخلف وراءه مصحات أوروبا المسيحية فحسب، بل تحجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس». وهذه العناية الفائقة التي أولاها المنصور الموحي في إطار هذه النهضة الطبية العارمة - إلى الشعب المغربي - علاجاً ووقاية - لم تقتصر على الحضرة أي مراكش الحمراء، بل تجاوزتها إلى كل الأعمال والعمالات كما لاحظ ذلك كثير من المؤرخين ومنهم صاحب «الاستقصا» من المتأخرين. ولعل من أهم العوامل التي دعمت في هذا العصر الذهبي حركة إقامة المستشفيات وحسن تجهيزها توفير أماكن النظافة من سبل عامة وحمامات حيث لاحظ الجزنائي في «زهرة الآس» (ص 33)، أن مدينة فاس كان بها في عهد المنصور والناصر ثلاثة وتسعون حماماً، وذلك في عهد ذكر عنه (وَلْتَر) في «مختصر التاريخ»، «أن الأوروبيين كانوا يستنكفون من النظافة لأنها تشبه الوضوء عند المسلمين». وهذا هو ما كان يحدو الغربيين إلى اللجوء للمستشفيات العربية. بالأندلس في العهد الموحي حيث توجه الملك الإسباني «شأنجة» إلى قرطبة من أجل العلاج من مرض الاستسقاء،⁽⁶¹⁾ وفي هذا العصر أيضاً لاحظ (وَلْتَر) أن الكنيسة كانت «قد حظرت الطب على الأوروبيين وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بدخائر القديسين وبالتعاويد والرقي التي كان يبيعها رجال الدين».

تلك نظرة موجزة عن معطيات النهضة العلمية عموماً والطبية خصوصاً في المغرب ترسم لنا الإطار الزمني والجغرافي الذي تفجرت خلاله عبقریات رجال أفذاذ أمثال ابن زهر ورفاقه.

(60) كان «مِيّي» كاتباً عاماً للحماية بتونس وأصدر كتابه هذا عام 1923.

(61) لوكلير، ج 2، ص 351.

